المنهج الدلالي في فهم النص القرآني

د/ صلاح الدين زرال
جامعة سطيف

الملخص :

إن البحث عن المقاربة في فهم النص القرآني يعد من أهم البحوث المعاصرة ، بحيث تقوم هذه المقاربة على إجراءات وأدوات يتوصل من خلالها إلى فهم نظامي للنص لا مفرداتي ، وفي هذا السياق فقد استعانت المداخلة في ناحيتها التطبيقية بالتجربة الفريدة التي عرضها علينا الباحث الياباني إيزوتسو ، وهي تجربة تقوم على منهج دلالي سماه إيزوتسو برؤية العالم أو ما يسمى في عرف علم الدلالة بـــ : نظرية الحقول الدلالية.

Abstract :

Searching to understand and interpret the Qur'an is one of the most important methodology tasks. The matter transcends a mere superficial understanding of the text, but goes to using the methodology mechanisms that help pave a sound understanding of the Qur'an text. In this sense, Izutsu's experience in understanding the Qur'an through the applied approach (the world's insight or the world's vision) will be used through his book (God and Men in the Qur'anic vision of the world). Izutsu has dealt with several key points in his semantic analysis and perhaps the most important thing in his methodology is his swift focus on the semantic issue of the approach's beginnings and ends.

– مدخل :

يعد الحديث عن فهم النص القرآني من المعاني السامية التي ينبغي للإنسان أن يعيشها، لأن التأمل سيرسخ المعاني و يوزعها في حقول فتغدو نظاما ، و إذا حصل ذلك تمكن المتأمل من تجسيد ذلك الخطاب عمليا ، فرتب المعاني سياقيا من ناحية التطبيق فأعطى لكل سياق حقه من الممارسة ، و إذا تمكن من تجميع المفاهيم تطبيقيا صنع بذلك حضارة ، وهذا ما تأتى للإسلام حين تأسس على هذا المفهوم ، وكذلك عند علمائنا القدامى، لكن حين نتحدث عن فهم النص القرآني ، فإن أول ما يشغل بالنا هو المنهج الذي عولج به التدبر القرآني ، وعلى هذا الأساس غدا المنهج و آلياته أمرا في غاية الأهمية لما يتضمنه من مساعدات أدواتية للوصول إلى تحديد المعاني وفق رؤية القرآن لعالم.

وقد حاول علماء العربية المعاصرون نقل المعرفة اللسانية الغربية إلى الثقافة العربية ، لكن هذا العمل افتقد في أغلب الأحيان إلى ممارسة المنهج في تحليل الخطاب ؛ لأن العمل كان تنظيريا يهدف إلى تتبع المصطلحية داخل التخصص ، وفي الخمسينيات من القرن العشرين بدأت الممارسة المنهجية تطفو على سطح تحليل الخطاب. ومع هذا ظل البحث في المجتمع العربي مبهما وغزيرا بالملابسات الترجمية التي أفسدت المعنى في كثير الأحيان.

يقول الباحث " مصطفى غلفان " : "إن مجتمعنا العلمي المعاصر ، في العالم العربي ، والعالم الثالث عموما.... مجتمع يقوم من حيث المنهج العلمي .... على **تجميع الظواهر ، و تبويب المواد** ، تماما كما يقوم في حياته الاجتماعية و الاقتصادية على تكديس الأشياء.[1] ثم يضيف : " لا تزال اللسانيات في العالم العربي ذلك المجهول الذي يثير فينا ريبا وشكا ، وتوجسا وخوفا ، أكثر مما يثير فينا نزعة – و لو فضولية – لمعرفة واقعنا من واقع الثقافة ، و العلم ، و المعرفة في العالم .[2]

ولذلك فـــ : " إن الخطاب يتأسس بصفة عامة على شبكة علائقية من التفاعلات والتأثيرات العميقة بين التفكير المنظم و التخيل اللامحدود و بين ضرورات التبرير وآليات العمل و البراكسيس ، يعني ذلك أن القول يولَد حتما من أحكام التأمل و النظر ومن ضرورة الفعل و تبرير الممارسات اليومية للكائن الاجتماعي.[3] بل ويذهب الباحث " منذر عياشي " أبعد من هذا حين يصف حضارة العرب بـــ : **حضارة النص** ، وقد ارتبط

هذا المصطلح بمنهج علماء العربية القدامى في تحليلهم للخطاب ، يقول : " إن التراث اللغوي العربي دليل حضارة شيدت بنيانها وفق نظام ، كان العقل المعماري فيه هو الأساس لكل تصور نظري و عملي ، و إن تراثا كهذا ، لا يعقل أن يكون قد خلا من معالجات دلالية بمفهوم العلم كما ندركه الآن ، خاصة و أن التراث اللغوي يعد سمة فارقة لحضارة قوم ، يمكن أن نطلق عليها **حضارة النص**.[4]

2 – مفهوم علم الدلالة أو المنهج الدلالي:

إن حديثنا عن علم الدلالة أو ما يعرف في عرف تحليل الخطاب بالمنهج الدلالي سيحيلنا لا شك على الباحث " ميشال بريال واضع هذا العلم ليرتبط بموضوع المعنى ، وقد " اعتقد الباحثون أن بريال قد وضعه " للمجال الذي يُعنى بتحليل المعنى الحرفي للألفاظ اللغوية ووصفها ، و لا تقتصر اهتمامات هذا العلم على الجوانب المعجمية من المعنى فقط، بل تشمل أيضا الجوانب القواعدية ".[5]

ويعرف علم الدلالة بأنه دراسة المعنى ، أو العلم الذي يدرس المعنى، أو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى ، أو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى.[6] كما ارتبط مصطلح الدّلالة بقضيّة الوضع والاستعمال المرتبط باللّغة أساساً؛ أي أنّ جلّ التّعريفات لم تتجاوز حدود اللّغة، فهناك من يعتقد مثلاً أنّ " مصطلح الدّلالة كان منتشراً في مصنّفاتٍ عربيةٍ قديمةٍ تتّصل بمجالاتٍ تقترب من المصطلح علم الدّلالة في صورته الحديثة ".[7]

والمعنى على هذه الشّاكلة هو الذي يحمل مفهوم القصد، وهو ما عبّرت عنه النّظرية التّداولية الحديثة، و لعلّ هذا هو الذّي بحث فيه علماء اللّغة؛ فهم يحاولون تقصّي المقاصد للوصول إلى لدّلالات. ونلاحظ في كثير من الأحايين أنّ البعض حين يعرّف الدّلالة يلجأ إلى بيان أنواعها، فهذا الباحث " إبراهيم أنيس "، يحاول أن يعرّف الدّلالة انطلاقاً من مفهوم المركز و الهامش، يقول: " يعيش النّاس في مدينة القاهرة حياةً اجتماعيةً تتضمّن قدراً كبيراً من التّعاون وتبادل المصالح... وهم مع هذا ربّما نشأوا في بيئات مختلفة، و تأثّروا بتجارب متباينة في حياتهم السّابقة، ممّا قد يترك أثراً قويّاً في فهمهم للألفاظ، و لكنّهم رغم ذلك يتعاملون بتلك الألفاظ، ويتنازل كلّ منهم عن تلك الفروق التي تلوّن الدّلالات بلونٍ خاصٍّ في ذهن كلّ منهم، ويقنعون في تلك الحياة الاجتماعية بقدرٍ

مشتركٍ من الدّلالة يصل بهم إلى نوعٍ من الفهم التّقريبي الذي يكتفي به النّاس في حياتهم العامّة. وهذا **القدر المشترك من الدّلالة** هو الذي يسجّله اللّغوي في معجمه، و يسمّيه بالدّلالة المركزية، و قد تكون تلك الدّلالة المركزية واضحةً في أذهان كلّ النّاس كما قد تكون مبهمةً في أذهان بعضهم ".[8]

ويمكننا أن نلاحظ أن مصطلح علم الدلالة يفترق في دلالته الإجرائية عن (المعنى) في دلالاته الحدوثية. فعلم الدلالة ليس هو (المعنى) ولكنه طرق دراسة المعنى . وبهذا يصبح جليا ، من وجهة نظر منهجية ، امتناع العلم الدارس عن الاختلاط بموضوع درسه.[9] فالدراسات اللغوية و الدلالية لم تعرف لها شكلا منظما إلا في نسق حضاري يرقى بها نحو التجريد فتقيم القوانين ، ويعود بها نحو المعاينة فتربط بين الكلام بوصفه حدثا ، وبين الدلالة بوصفها محركا سابقا لهذا الحدث من جهة ، وحادثا معه ، ولاحقا به في الوقت نفسه من جهة أخرى.[10] وقد تبلور المنهج الدلالي منهجا قائما بذاته من خلال تشكله داخل الحقل اللساني – كما أوردت من قبل – ولذلك لا يستطيع منظر علم الدلالة أبدا أن يتخلى عن مبدأ القيمة اللساني* ، والذي يحدد مفهوم تشكل الشبكة العلائقية بين العلامات اللسانية حضورا أو غيابا، ويرى عالم اللغة هامبولدت أن " قضية العلاقات بين بنية اللغة والعقلية القومية تحتل مكانا أساسيا في نظريته اللسانية ، فاللغة هي (نتاج متميز لروح أمة بعينها) ، و التعبير الخارجي عن (البنية الداخلية) يميط اللثام عن رؤية خاصة للعالم ... ومن هنا سميت نظريته (رؤية العالم) ".[11] وقد استثمر سوسير هذه الفكرة في تأسيس اللسانيات على مفهوم النظام ، وقد أكد أن " اللغة ليست تجميعا كما يظنها البعض ، لكنها تنظيم رمزي ، أي نظام لرموز خلاقة ، وهي مستوحاة من نفسها ".[12]

3 – الدراسة الدلالية التطبيقية :

أ – الحقول الدلالية :

إن حديثنا فيما سبق كان منصبا على أصول النظرية والأسس التي خرجت منها ، أما الآن فإن مقالتنا ستركز على المفاهيم الأساسية التي بنيت من خلالها نظرية الحقول الدلالية الغربية ، ولقد عرفنا النظرية عند علماء اللغة " أنها تصنيف للألفاظ المستعملة في

نص من النصوص أو لغة من اللغات ترتبط فيما بينها برباط دلالي معين "[13] ، والحقل الدلالي أو المعجمي هو مجموعة متكاملة من الكلمات ترتبط دلالاتها بمجال يعبر مجموعها عنه .... وعلاقة هذه النظرية بالمعنى أن معرفة الحقل الذي تنتمي إليه الكلمة يساعد في تعريف معناها ، كما أن موقع الكلمة بين أخواتها في الحقل يعني درجة من تحرير معناها في الحقول المقابلة لذلك الترتيب ".[14]

وقد شاعت فكرة الحقول الدلالية بشكل كبير في القرن العشرين ، و اشتهر بها عالم اللغة تريير trier الذي كان يؤكد على أهمية الفكرة في فهم لغات وثقافات الشعوب ،ولقد كان لفكرة رؤية العالم بالغ الأثر في ظهور نظرية الحقول الدّلالية، فبهذه الفكرة التي تمحورت أساساً حول ارتباط اللّغة بالرّاهن سواء أكان ذلك متعلّقاً بالثّقافات أم غيرها، وقد أدّى كلّ ذلك إلى " ظهور نظرية الحقل الدّلالي المعاصرة في اللّسانيات الألمانية ". ويقرّ الباحثون أنّ الفكرة منبثقةٌ فعلاً مـــن هـــذه المرجعيـــة؛ أي رؤية العالم، ويرى الباحث " جورج ماطوري *George matouré* " أنّ " بعض العلماء الألمان مثل إيسن *Ipsen*... وخاصّة تريير *Trier*الذين استخدموا، ولاسيّما ابتداءً من 1930 وبشكلٍ مختلفٍ جدّاً، مفهوم الحقل اللّساني من أجل تفسير أفعال المفردات. ويقوم تصوّر تريير على أساس فكرة همبولد ذاتها، وهي (أنّ المحتوى والشّكل اللّغوي لحياة الإنسان النّفسية كلّ منهما مشروط بوجود الآخر، ولا يمكن اعتبارهما منفصلين) وأنّ (اللّسان هو التّعبير عن الشّكل الذي بواسطته ينظر الفرد إلى العالم ويحمله إلى داخل ذاته). ولكنّ اللّسانيات الألمانية الخاصّة بالحقول، وهي تتحرّك بين الاعتبارات الفلسفية المجرّدة... ووجهة نظرٍ لسانيةٍ خالصةٍ وصوريةٍ قائمةٍ على أساس المقابلة بين الكلمات وضدّها، بدت عاجزةً عن تحديد تقطيعاتٍ في تاريخ المعجم، ولم تستطع أن تصوغ شيئاً سوى تفسيراتٍ جزئية وقابلة للمناقشة... ".[15] ويعتقد تريير – أحد أقطاب هذه النظرية – " أن قيمة كلمة ما لا يمكن تحديدها إلا بتعريفها ضمن علاقتها بقيمة الكلمات المجاورة لها و المتباينة معها ، إنها لا تحصل على معنى إلا باعتبارها جزءا من كل ولهذا فإنه ليس هناك من معنى إلا داخل المجال ".[16]

لقد حاول علماء العربية المحدثون منذ أن ظهرت اللسانيات الحديثة – وعلى وجـــه الخصوص علم الدلالة بعدّه أحد أهم فروع اللسانيات – أن ينزلوه منزلة التطبيـــق كـــي

تتضح معالمه النظرية المعقدة ، وخاصة على النصوص العربية ؛ اعتقادا منهم أن النص العربي له خصوصية ثقافية تختلف تماما عن الخصوصية الثقافية التي قدمتها النظريات اللسانية الغربية ، وبالتالي حرصوا على أخذ ما يمكن أن يستجلي المعاني من تلك النصوص.

ولعل أهم تلك النصوص التي أخذت قسطا هاما من الدراسة و التحليل هو الخطاب القرآني الكريم ، بعدّه المدونة العربية الأساسية من جهة ، والمدونة التي تمثل ديانة الإسلام من جهة أخرى ، وعلى هذا الأساس لم يتوجه علماء العربية فقط إلى دراسة هذا النص المقدس فحسب ، بل لجأ علماء لغة من غير العرب إلى دراسة هذا النص بالتحليل متوسلين بمناهج و إجراءات قد تساعد كثيرا في الوصول إلى فهم أحسن للقرآن الكريم.

لذلك نجد من يقترح وهو يتحدّث عن الدّلالة في القرآن – بوصفها موضوعنا الأساسي – تقسيمها قسمين: " الدّلالة التّاريخية: ويُقصد بها، تلك الدّلالة التي ثبّتها المكتوب في النصّ، و صيّرها إشارةً يدلّ بها لا على نفسه، و لكن على سياقه الخارجي... فإنّ النصّ يمثّل... كينونةً إشاريةً تتّصل دلالاتها بأسباب النّزول و زمن الحدوث... والدّلالة النّصية: المرتبطة بالنصّ؛ الذي هو سياق المعنى، والقرآن يبنيه وفق نظامٍ به خاصّ... فإنّ النصّ القرآني يمتاز من بقيّة النّصوص بفرادة تماسكه وكيفية هذا التّماسك، فهو نصّ يقدّم نفسه بوصفه نصوصاً متداخلةً في إطار السّورة الواحدة، كما يقدّم نفسه بوصفه نصّاً واحداً في إطار السّور المتعدّدة ".[17]

ومهما تعددت النظريات الدلالية فإنها لم تقدم الحل الإجرائي بشكل تحليلي داخل اللغة، مما قد يساعد في فهم أفضل لهذه المقاربات ، بل اكتفت تلك النظريات بوصف المفاهيم النظرية ، و لذلك صعب تحديد مفهوم عام لعلم الدلالة ، هل هو دراسة المعنى أم دراسة لنظريات المعنى ، ولذلك ينتقد إيزوتسو ذلك قائلا ومبينا تصوره لعلم الدلالة : " ما زلنا حتى الآن نفتقر إلى ((علم دلالة)) متسق ومنظم بدقة ، وكل ما لدينا هو عدد من نظريات المعنى المختلفة ، وبنوع من المبالغة يمكننا أن نصف الموقف بقولنا إن كل من يتحدث في ((علم الدلالة)) يميل كما يتبادر إلى أذهاننا فوراً إلى أن يعدّ نفسه مؤهلا

لتعريف الكلمة وفهمها كما يريد. و لما كان الأمر كذلك ، فإن مهمتي الأولى في كتابة هذا الكتاب لا بد من أن تكمن في القيام بمحاولة لإيضاح تصوري الخاص لعلم الدلالة... ".[18]

يقول إيزوتسو وهو يشرح مقاربته هاته، وذلك من خلال التعريف بكتابه: " إن هـذا الكتاب الموسوم فعليا بـ (الله والإنسان في القرآن) يمكن أن يعنون على نحو أعم بـ (علم دلالة القرآن). وكنت سأضع هذا العنوان دون تردد، لو لا حقيقة أن الجزء الرئيسي من هذه الدراسة معني على وجه الحصر تقريبا بمسألة العلاقة الشخصية بين الله الإنسان في الرؤية القرآنية للعالم، ويركز على هذا الموضوع المحدد. ولهذا، فإن من الجـوهري تماماً أن نحاول منذ البداية امتلاك الفكرة الأكثر وضوحا ما أمكن، حول ملاءمة المـنهج الدلالي للدراسات القرآنية، ونرى إن كان ثمة فائدة حقيقية من مقاربة القرآن الكريم مـن هذه الزاوية الخاصة ".[19]

بل ونلفيه موضّحا لمفهوم **علم دلالة القرآن** قائلا : " إن عنوان (علم دلالة القرآن) يوحي أولا أن العمل سيقوم بصورة أساسية على تطبيقنا **منهج التحليل الدلالي** أو المفهومي لمادة مستمدة من المعجم القرآني. ومن جانب آخر، فإن هذا سيوحي بأن علم الدلالة سيمثل بالنسبة إلى كل من مسألتي التوكيد اللتين تمت الإشارة إليهما للتو ، الوجه المنهجي من عملنا ، فيما سيمثل القرآن جانبه المادي. إن كلا منهما ، كما قلت ، ذو أهمية متساوية. لكن على الصعيد التطبيقي ، أعني في ما يخص هدف هذه الدراسة ، فإن الأول قد يكون أكثر أهمية من الثاني. ذلك أن هذا الكتاب موجه أولا وبشكل رئيسي إلى أولئك الذين لديهم أصلا معرفة عامة وجيدة بالإسلام. و لذلك ، فهم على استعداد لأن يبدوا اهتماما حيويا بالمشكلات المفهومية التي تثيرها دراسة من هذا النوع تخص القرآن. على حين لم أفترض أن لديهم شيئاً مسبقا من المعرفة المتخصصة في علم الدلالة وفي منهجيته... ".[20]

ووصولا بهذا المفهوم الذي حدده إيزوتسو في فهمه لتحليل مفردات و تراكيب القرآن ، يحدد مفهوم علم الدلالة الذي يريده تطبيقيا أكثر منه نظريا " إن علم الدلالة .... دراسة تحليلية للمصطلحات المفتاحية الخاصة بلغة ما ، تتطلع للوصول في النهاية إلى

إدراك مفهومين لـــ ((الرؤية للعالم)) الخاصة بالناس الذين يستخدمون تلك اللغة كأداة ليس للكلام والتفكير فحسب ، بل الأهم ، كأداة لمفهمة العالم الذي يحيط بهم وتفسيره. إن علم الدلالة بهذا الفهم نوع من ((علم الرؤية للعالم)) weltanschauungslehre أو دراسة لطبيعة رؤية العالم وبنيتها لأمة ما ، في هذه المرحلة المهمة أو تلك من تاريخها. وهذه الدراسة تستهدي بوسائل التحليل المنهجي للمفاهيم الثقافية التي أنتجتها الأمة لنفسها وتبلورت في المفاهيم المفتاحية للغتها. سيكون من السهل الآن أن ندرك أن كلمة ((القرآن)) في عبارتنا ((علم دلالة القرآن)) ينبغي أن تفهم فحسب بمعنى الرؤية القرآنية للعالم، أي النظرة القرآنية للكون ، و لا بد لعلم دلالة القرآن أن يبحث بشكل رئيسي في مسألة كيفية تَبَنْيُن عالم الوجود في منظور هذا الكتاب الكريم ، و ما هي مكونات هذا العالم وكيف تتعالق فيما بينها. وبهذا الفهم فإن علم دلالة القرآن سيكون نوعا من الأنطولوجيا (مبحث الوجود) ، ولكنها أونطولوجيا عيانية حية حركية ، لا ذلك النوع من الأنطولوجيا النظامية السكونية التي يقيمها فيلسوف على أرضية تجريدية من التفكير الميتافيزيقي. إن هذا العلم سيقيم أنطولوجياه على أرضية عيانية من الكينونة والوجود كما انعكست في آيات القرآن. وسيكون هدفنا أن نكشف عن هذا النمط من الأنطولوجيا الحية الحركية من القرآن ، بأن ندرس المفاهيم الكبرى بشكل تحليلي ومنهجي، أعني تلك المفاهيم التي يبدو أنها كانت ذات دور حاسم في تشكيل الرؤية القرآنية للكون.[21]

وقد تحدث علماء الدلالة كثيرا عن هذه القضية المتعلقة بالمعنى الأساسي و المعنى العلاقي ، وعن ضرورة الاستعانة بهذه الشبكة المفهومية لتحليل دلالات الكلمات ، ومن هؤلاء جورج ماطوري الذي وظف مصطلحين هامين في علم الدلالة هما : الكلمة الشاهدة والكلمة المفتاح وهذا في إطاره حديثه عن التطور الدلالي ،" **فالكلمة الشّاهدة** تقوم بإدخال مفهوم **القيمة**، ويمكن القول مفهوم الوزن (*Notion de poids*)، إلى ميدان المفردات. إنّ **الكلمة الشّاهدة** هي الرّمز المادّي للعمل الرّوحي المهمّ. فهو يمثّل في الوقت الواحد العنصر التّعبيري والعنصر الملموس الذي يجسّد عملاً من الأعمال الحضارية "[22] ، ويتساءل الباحث نفسُه قائلاً: " كيف نحدّد الكلمات الشّاهدة داخل الحقل المفهومي؟ إنّ ذلك لا يتمّ إلاّ حين نحدّد بصورةٍ كافيةٍ الحقبة التي ينتمي إليها الحقل. إنّ الكلمات الشّديدة الأهمّية قد تكون أحياناً هي تلك الكلمات التي نحكم لأوّل وهلةٍ بتفاهة قيمتها... ".[23]

ويضيف موضّحاً المسار المعرفي للمفهوم: " لقد رأينا إذن أنّ الذي يرسم ملامح **الكلمة الشّاهدة** ليس هو فقط قيمتها السّكونية داخل مجموعتها، ولكن هو أيضاً أن تعبّر عن ديناميةٍ: فالكلمة الشّاهدة هي رمز التّغيير. وبهذا يعود مفهوم المدّة ليدخل من جديدٍ في المعجمية السّكونية والوصفية ".[24]

لقد استطاع الباحث إيزوتسو أيضا بالمفاهيم السابقة أن يوصلنا إلى مفهوم للمعجم مرتبط برؤية العالم الدلالية ، لا الفلسفية كما عبر عنها هو ، وهذا المفهوم يختلف تماما عن المفهوم المعروف عن المعجم باعتباره قاموسا يعرف بالمفردات ، ولكي يستنتج هذا المفهوم يتدرج إيزوتسو فيتبين من خلال الأمثلة ، يقول: " .... بقدر ما كان أن نبين كيف أن التحليل الدلالي للجانب ((العلاقي)) من معنى كلمة ما يتطلب تقصيا مدققا شديد العناية في الوضع الثقافي العام للعصر وللناس ، فضلا عن مزيد من المعرفة اللغوية المتخصصة بالكلمة. ذلك أن ما سميناه بالمعنى ((العلاقي)) في النهاية ، ليس سوى تجلّ عياني أو بلورة لروح الثقافة ، وانعكاس أصيل ذي طبيعة نفسية ، للنزوع العام من جهة ، ومن جهة أخرى للناس الذين يستخدمون الكلمة كجزء مهم من معجمهم. إن هذا في اعتقادي يظهر أيضا أن التحليل الدلالي ليس تحليلا بسيطا للبنية الشكلية لكلمة ما ، أعني دراسةً تعنى بأصل الكلمات و تاريخها أو ((الإيتمولوجيا)) ، فالإيتمولوجيا ، حتى عندما نكون محظوظين كفاية لنعرفها ، يمكن أن تمدنا فقط بمفتاح كالذي يمدنا به المعنى الأساسي لكلمة ما . و لا بد من أن نتذكر أن الإيتمولوجيا تظل في غالب الأحيان عملا تخمينيا محضا ، وكثيرا ما تكون لغزا لا يحلّ. إن التحليل الدلالي في تصورنا شيء يعتزم الذهاب بعيدا وراء ذلك ، و يسعى إلى أن يكون علما للثقافة ، إذا أردنا تصنيفه ". ويصل من خلال فهمه هذا إلى تعريف دقيق للرؤية الدلالية للعالم ، لذلك فـ " إن تحليل العناصر الأساسية والعلاقية لمصطلح مفتاحي ما لا بد من أن يستهدي بطريقة كهذه ، وعندما ننجح في إنجازه، فإن دمج وجهي معنى الكلمة سيكشف عن وجه استثنائي آخر ؛ وجه خطير للثقافة كما مورست أو تمارس من قبل الذين ينتمون إليها. وفي النهاية ، إذا ما استطعنا الوصول إلى المرحلة الأخيرة ، فإن كل التحليل المنجز سيعيننا في أن نعيد – على المستوى التحليلي – تنظيم مجمل بنية الثقافة كما عِيشت أو تعاش في الواقع ، بما أن القضية قائمة في تصور الناس. وهذا ما أريد تسميته بـ ((الرؤية الدلالية للعالم))

الخاصة بثقافة ما ".[25] ويخلص في الأخير إلى مفهوم مختلف عن المفهوم السائد للمعجم ، فيقول : " إن التحليل الدلالي ..... لا يعني الدراسة المفرداتية للمعجم القرآني كله ، أي دراسة كل الكلمات التي حدث أن وجدت في القرآن ، بل يعني الدراسة التحليلية النظامية للكلمات الأكثر أهمية فقط، و التي يبدو أنها تؤدي دورا بالغ الأهمية في تمييز السمة السائدة التي تتكرر في الفكر القرآني وتتخلله وتسيطر عليه. ووحدها الكلمات من هذا النوع ، أي الكلمات المفتاحية ، تحدد ميزة النظام ككل ".[26]

4 – نماذج الدراسة الدلالية التطبيقية :

حاول الباحث " محمد العبد " أن يشير إلى أن المعنى البلاغي قد يكون له أثر كبير في تغيير مقام الكلمة داخل الحقل الدلالي ، و قد تمخض عن ذلك مصطلح (**المفارقة القرآنية)** ، يقول : " ويمكننا ، في ضوء معرفة أنواع العلاقات الدلالية داخل الحقول المعجمية ، أن نلاحظ أن هذه الاستخدامات القرآنية ، ترتكز على إحدى العلاقات الدلالية المعروفة ؛ وهي علاقة التضاد. و للتضاد أنواع عدة. وهي في هذه الاستخدامات أقرب شيء إلى ما يسمى بالتضاد المتدرج ؛ فالكلمتان : " ظل " و " يحموم " ، يمكن وضعهما على مقياس متدرج ، يشتمل – إلى جانب التضاد المتطرف – على أزواج من التضادات الداخلية ، مثل : جهنم ، لظى ، الحطمة ، السعير ، سقر ، الجحيم ، الهاوية.

وإذا كان المحدثون من أصحاب نظرية الحقول الدلالية ، يؤسسون نظريتهم ، على أن فهم معنى الكلمة ، مرهون بفهم مجموعة الكلمات المتصلة بها دلاليا ، أو متصل – كما يقول لايونز – بدراسة العلاقات بين المفردات داخل الحقل أو الموضوع الفرعي ، باعتبار أن معنى الكلمة هو محصول علاقاتها بالكلمات الأخرى في داخل الحقل المعجمي ، فإن الاستخدامات القرآنية السابقة ، و السياقات التي وردت فيها ، تقضي بوجوب ضم الكلمات الأخرى التي تدخل مع كلمات كل حقل في علاقة تضاد أو تخالف حيتى يصبح تحديد معنى الكلمة أدق وأقوى تكاملا ...".[27]

ــ نموذج إيزوتسو في التحليل الدلالي التطبيقي للقرآن الكريم :

يعد كتاب " الله والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم " نموذجا مناسبا لمن رام معرفة المنهج الدلالي في تحليل الخطاب عموما ، و الخطاب القرآني على وجه التحديد، ويبدأ المنهج بوضوح عنده حينما يحيلنا على عنوان الكتاب في حد ذاته ، يقول موضحا هذه العلاقة المتينة في التحليل المنهجي :" إن عنوان (علم دلالة القرآن) يوحي أولا أن العمل سيقوم بصورة أساسية على تطبيقنا منهج التحليل الدلالي أو المفهومي لمادة مستمدة من المعجم القرآني. ومن جانب آخر، فإن هذا سيوحي بأن علم الدلالة سيمثل بالنسبة إلى كل من مسألتي التوكيد اللتين تمت الإشارة إليهما للتو ، الوجه المنهجي من عملنا ، فيما سيمثل القرآن جانبه المادي. إن كلا منهما ، كما قلت ، ذو أهمية متساوية. لكن على الصعيد التطبيقي ، أعني في ما يخص هدف هذه الدراسة ، فإن الأول قد يكون أكثر أهمية من الثاني. ذلك أن هذا الكتاب موجه أولا و بشكل رئيسي إلى أولئك الذين لديهم أصلا معرفة عامة وجيدة بالإسلام. و لذلك ، فهم على استعداد لأن يبدوا اهتماما حيويا بالمشكلات المفهومية التي تثيرها دراسة من هذا النوع تخص القرآن. على حين لم أفترض أن لديهم شيئاً مسبقا من المعرفة المتخصصة في علم الدلالة وفي منهجيته....".[28]

ويضرب لذلك مثلا عن كلمة **الله** فيقول : " و لا بد من أن نلحظ أن هذا لم يكن يعني مجرد تغير في تصور العرب لطبيعة الله فقط ، بل عنى أيضا **تغريا جذريا عنيفا لكل النظام المفهومي** الذي تكلمنا عليه في القسم السابق. فقد أثر التصور الإسلامي الجديد للإله الأسمى بعمق في بنية الرؤية للكون كليا. ذلك أن **نظاما توحيديا ذا مركزية إلهية** قد تأسس للمرة الأولى في تاريخ العرب ، نظاما يحتل مركزه الإله الواحد الوحيد بوصفه المصدر المتفرد لكل الأنشطة الإنسانية ، و لكل أشكال الكينونة والوجود في الحقيقة. وهكذا أصبحت كل الأشياء الموجودة و القيم رهنا بإعادة تنظيم كاملة ، وتوزيع جديد. إن كل عناصر الكون بلا أي استثناء ، اجتثت من رتبتها القديمة ، و أعيد زرعها **في حقل جديد ، و قد خصص لكل عنصر من العناصر موقع جديد،وارتبطت بعلاقات جديدة في ما بينها. كما أن المفاهيم التي كانت سابقا غريبة تماما عن بعضها قد أدخلت في علاقات**

صميمية ، والعكس صحيح ؛ أي أن المفاهيم التي كانت مترابطة بقوة في ما بينها في النظام القديم أصبحت منفصلة في النظام الجديد ".[29]

وبعد ه تحليله الدلالي للمعنى الأساسي و كيفية انتقاله إلى المعنى العلاقي يستنتج الباحث إيزوتسو قائلا : " وعلى أية حال ، فإننا نرى كيف أن معاني الكلمة تتأثر بجيرانها ، أي بفعل النظام الذي تبدأ بالانتماء إليه ككل. إن الكلمة التي تدل على الشكر لا يمكنها أن تكتسب معنى يقرب من الإيمان بصورة مفهومة إلا عن طريق إدخالها في حقل دلالي خاص ، حيث تسهم العناصر كلها في جعلها تتطور في ذلك الاتجاه. وفي إطار تمييزنا بين المعنى ((الأساسي)) والمعنى ((العلاقي)) ، فإننا يمكن أن نصف بوضوح و بشكل وافٍ هذا الموقف بقولنا إنه في حالة ((شكر)) قد نما معنى علاقي مميز وملحوظ حول اللب الدلالي الأساسي للكلمة في القرآن. وذلك ما مكن الكلمة من أن تستعمل أحيانا بصورة ترادفية تقريبا بدلاً من الفعل ((آمن)) ، بينما في حالة ((كفر)) ، فإن المعنى العلاقي أصبح مؤثرا بقوة ، وغلب على المعنى الأساسي إلى درجة أنه في آخر الأمر أنتج كلمة جديدة لها معنى أساسي هو ((عدم الإيمان)) ".[30]

ولتوضيح فكرة المعجم القرآني يضرب لنا إيزوتسو مثالا من القرآن نفسه والمتعلقة بالعلاقة بين الله و الإنسان ، يقول : " إن أول المتضادات وأكثرها أهمية بهذا المعنى يتألف من العلاقة الجوهرية بين الله و الإنسان ، و لا حاجة إلى القول إن الله وفقا للقرآن ليس الإله المتعالي فحسب ، بل هو الموجود الوحيد الذي يستحق أن يسمى ((موجودا)) بكل ما في الكلمة من معنى ، والذي لا يمكن لأي شيء في العالم كله أن يضاده. ومن الناحية الأونطولوجية ، فإن من الواضح جدا أن العالم القرآني ذو مركزية إلهية ... إن الله يقوم في مركز عالم الوجود بالذات. وكل الأشياء الأخرى ، الإنسانية وغير الإنسانية مخلوقات له ، وإذن هي بحد ذاتها أدنى منزلة منه في تراتبية الوجود بصورة مطلقة. و بهذا المعنى لا يمكن أن يوجد شيء مضاد له ، وذلك بالضبط ما عنيناه بقولنا أعلاه من أن ((الله)) من وجهة دلالية هي الكلمة – المركز العليا في معجم القرآن ، و التي تهيمن على الحقول الدلالية كلها وعلى النظام كله تبعا لذلك. إن مفهوم الإنسان

يشكل القطب الرئيسي الثاني الذي يقف وجها لوجه بإزاء القطب الأساسي. أعني مفهوم ((الله)) ".[31]

بل الملاحظ على إيزوتسو أنه يفرق بين مصطلح **التغير الدلالي** ومصطلح **التطور الدلالي** ، فإذا كان الأول يرصد التغيرات التي حدثت على مستوى المفردات من أجل رصد مظاهر التغير الدلالي ، فإن الثاني يرصد التغيرات التي حدثت على مستوى النظام لا المفردات فحسب ، ولذلك فهو يستحضر نظاما سابق ونظاما حاليا ويعالج الخلخلة التي حدثت على مستوى النظامين من خلال الكلمة المركز يقول : " إن علم الدلالة التاريخي لا يقوم كما فهم من قبل على تتبع الكلمات المفردة في أنفسها ، من أجل رصد كيفية تغييرها لمعناها في مجرى التاريخ. إن ذلك هو المنهج النموذجي لدراسة اللغة في القرن التاسع عشر. على حين أن علم الدلالة التاريخي كما نفهمه الآن ن يبدأ فحسب عندما ندرس تاريخ الكلمات في إطار الأنظمة السكونية التي تنتمي إليها كلها ، أي عندما ، بتعبير آخر ، نقارن سطحين أو أكثر مع بعضهما مما يماثل اللغة نفسها في مرحلتين مختلفتين من تاريخها ، تفصل بينهما فسحة من الزمن.[32]

الكلمة التي لدي هي (**كريم**) فقد كانت هذه الكلمة كلمةً مفتاحية مهمة جدا في الجاهلية. وتعني أصالة النسب ... ولما كان الكرم المتطرف وغير المحدود في تصور العرب القدماء للفضيلة الإنسانية ، إظهارا واضحا ومجسدا لنبالة المرء، فإن كلمة (**كريم)** اكتسبت أيضا معنى الرجل الذي يتحلى بالجود المفرط إلى درجة أن يعد بمفهومنا نحن(**مبذرا**).

وقد خضع مضمون هذه الكلمة لتغير كبير عندما ربطت في السياق القرآني بعلاقة قوية مع مفهوم (**التقوى**) الذي أشرنا إليه آنفا. ولقد بين القرآن بوضوح لا مزيد عليه أن الأكثر كرما من بين كل الناس هو من يتخذ موقف (التقوى) تجاه الله : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ الحجرات: ١٣، إن ربطا كهذا بين الكلمتين لم يكن ليحلم به أحد قبل الإسلام أبدا. إن هذه الكلمة العربية القديمة (**كريم**) التي تلخص وجها مهما من رؤية العرب للحياة قد أدخلت في مجال جديد تماما هو مجال الورع التوحيدي للإسلام.... ومن الآن فصاعدا ، فإن من يستحق أن يدعى كريما بالمعنى الحقيقي للكلمة ، ليس الشريف المولد

الذي ينتمي إلى عائلة و قبيلة نبيلتين ، و لا الذي يواصل تبذير ممتلكاته بتهور ومن دون تفكير أو تروٍّ....[33]

خلاصة القول : إن تدبر القرآن وفهمه أحسن فهم يتطلب منا امتلاك الأدوات المنهجية وتمحيصها ، سواء أكانت الأدوات تراثية أم حديثة ، لأن التمحيص وحده هو الكفيل بمساعدتنا في غربلة المعرفة حتى لا يلتبس علينا الأمر ، ولذلك نقول إن المنهج الدلالي وإن كان وليدة الثقافة اللسانية الغربية إلا أنه قد لنا الكثير في تحليل الخطاب ، و قد استطاع إيزوتسو وهو باحث ياباني أن يتوسل بأدوات التحليل المنهجي الدلالي في قراءته للقرآن رغم أنه نشأ في ثقافة غربية و تشبع بها ، يقول مترجم كتاب " الله و الإنسان في القرآن " : " إن إيزوتسو في هذا الكتاب ، يجعلنا نفهن الماهية الحقيقية لعلم الدلالة وفلسفته، حيث يعرض أهم أساسياته و مبادئه ، ثم يتقدم بجرأة علمية رصينة بعرض رؤيته وفهمه الخاص لها .... **إنه يعلمنا بذلك أن نكون إيجابيين في تلقي الثقافة الغربية الحديثة ومنهجياتها المتطورة ؛ أن نتبناها بوعي علمي أصيل يتيح لنا تعديلها و تطويرها وفقا لأهداف بحوثنا وموضوعاتها في إطار هويتنا الثقافية** ". [34]

الهوامش:

[1] – منذر عياشي ، قضايا لسانية وحضارية ، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر ، ط1 ، 1991 ، ص 13.

[2] – المرجع نفسه ، ص 11. عدد الباحث منذر عياشي عوائق البحث اللساني العربي في ثلاثة : أولها تبعية البحث اللغوي العربي للممارسات الاستشراقية والمناهج الغربية ، و ذلك لعدم امتلاكه نظرية خاصة به مستوحاة من الحضارة ، و ثانيها : هو حذف العنصر الحضاري من ساحة البحث العلمي ، وهذا ما أدى إلى انقسام في ذهنية الباحث العربي ، و ثالثها : هي مشكلة المصطلحات التي نتجت عن الإشكاليتين السابقتين. ص 14 إلى ص 19.

[3] – فتحي التريكي ، نشوء المفهوم والفكرة و المقولة وسيرورتها في مختلف التشكيلات الخطابية ، مجلة تأسيس القضية الاصطلاحية ، بيت الحكمة ، قرطاج ، 1989 ، ص 107.

[4] – منذر عياشي ، اللسانيات و الدلالة ، مركز الإنماء الحضاري ، ط1 ، 1991 ، ص 26.

[5] – محمد محمد يونس علي ، مدخل إلى اللسانيات ، ص 17.

[6] – أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ص 11.

[7] – محمد حسين ، التفكير اللغوي الدلالي عند علماء العربية المتقدمين ، ص 72.

[8] – إبراهيم أنيس ، دلالة الألفاظ ، ص 106.

[9] – منذر عياشي ، اللسانيات والدلالة ، ص 32.

[10] – المرجع نفسه ، ص 91.

* – يرى سوسير وأصحاب النظرية اللسانية أن قيمة العلامة اللسانية مستمدة من مبدأي المخالفة و المجاورة مع العلامات اللسانية الأخرى.

[11] – ملكا افتش، اتجاهات البحث اللساني، ص 66 ، 67.

[12] – *Adam schaff ; langage et conaissance;p23*

[13] – حلمي خليل ، الكلمة ، دراسة لغوية ومعجمية ، ص 192.

[14] – محمد حسن جبل ، المعنى اللغوي ، ص160. أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ص 79 ، 80 بتصرف.

[15] – جورج ماطوري ، منهج المعجمية ، ص 128 ، 129.

[16] – Lyons;semantics;p252

[17] – منذر عياشي ، اللسانيات والدلالة ، ص 96 ، 97.

[18] – إيزوتسو ، الله والإنسان في القرآن ، ص 31 ، 32.

[19] – المرجع نفسه ، ص 29، 30.

[20] – المرجع نفسه ، ص 30.

[21] – المرجع نفسه ، ، ص 32.

[22] – جورج ماطوري ، منهج المعجمية ، ص 130.

[23] – المرجع نفسه ، ص 130.

[24] – المرجع نفسه ، ص 131.

[25] – إيزوتسو ، الله و الإنسان في القرآن ، ص 51 ، 52.

[26] – المرجع نفسه ، ص 126.

[27] – محمد العبد ، المفارقة القرآنية ، دراسة في بنية الدلالة ، مكتبة الآداب ، ط2 ، 2006 ، ص 67، 68.

[28] – إيزوتسو ،الله والإنسان في القرآن ، ص 30.

[29] – المرجع نفسه ، ص 37 ، 38.

[30] – المرجع نفسه ، ص 49.

[31] – المرجع نفسه ، ص 128.

[32] – المرجع نفسه ، ص 73 ، 74.

[33] – المرجع نفسه ، ص 81 ، 82. يشير هنا إلى قوله تعالى : (كالذي ينفق ماله رئاء الناس و لا يؤمن بالله و اليوم الآخر﴾ **البقرة: ٢٦٤** (و آت ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل و لا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا﴾ الإسراء: ٢٦

[34] ــ الله و الإنسان في القرآن ، إيزوتسو ، مقدمة المترجم ، ص 11.